نيجيريا

ظهر الوجه اخيرًا!

بقلم احمد الجبيلي

منذ الايام الاولى من عام ١٩٧٠ ، اسدلت على نيجيريا ظلال صمت كثيف . لم يعد يحضر منها ، في حيز الاخبار المتداولة خارجها ، سوى موقف بترولي ما ، في جدال الازمة العامة ، او انتخاب رئيسها رئيسا لمنظمة الدول الافريقية عام ٧٣ أو نبأ اضراب لا يكاد احد يعرف من أين نبت .. حتى ان الملحق الاسبوعي لصحيفة كبرى حين يصدر فهرسا لمواده عام ٧٤ ، لا يورد فيه اسم نيجيريا ، على الاطلاق .. انتهت حرب بيافرا اذن .. زاد ضحاياها على مليونين، غادروا سطح الارض وغادروا بعدها فورا صفحات الجرائد وانسلوا صامتين — شأن معظم الموتى ! — من بين دفات المجلات والكتب .. حتى كان هذا الانقلاب الاخير قبل أيام .

غير ان نيجيريا هي أكبر بلدان افريقيا كلها، وهي واحدة من اغنى الدول في جنوب الصحراء الكبرى. وخروجها من الكلام لا يعني خروجها من الاهتمام . في نهاية الستينات كانت حربها الاهلية مدار مواقف شتى من سائر الاطراف . ولم تنم هذه الاطراف عن نيجيريا حين وضعت الحرب اوزارها . ثم ان اهل نيجيريا — جماهير وقادة جيش واصحاب اعمال ورؤساء قبائل — ما زالوا يهتمون بانفسهم ، هم ايضا ، ايا كان موقف الصحافة ، في الخارج . ما زالوا يعيشون ويموتون ، يناضلون ويقتتلون . وما زال يكفي انقلاب عسكري لينزاح الظل عن بلد ضخم وصراعات هائلة اخترقت تاريخه المعاصر وما زالت تخترق نواحيه . ولا نلبث ان ندرك أن « الاطراف المعنية » ، في الداخل والخارج ، كانت مائلة ، بعضها لبعض ، طوال هذه السنوات وما كان أن تنام عن نيجيريا لحظة واحدة .

نستطيع ان نبدأ حديث نيجيريا من أية نقطة شئنا . ذلك أن أي شيء هناك ينم عن كل شيء . نبدأ مثلا من الاستكانة التي تلقى بها الرئيس المخلوع غوون خبر الانقلاب . ظل يبتسم ولم يقل شيئا ذا

مريد الله والله يعفو عنه الزبه .. اخيرا

أهمية في البدء ، تباطؤ استسلامه ورغبته في العودة الى بلاده ، موالية السلطة الجديدة ، بل انه كان قد استسلم — في ما يبدو — قبل سفره الى كمبالا ، فأرسل اسرته الى لندن .

الهوسا والايبو والفلاويا

ذلك ان غوون يعرف نفسه ويتذكر ما وراءه . وهو ، قبل كل شيء ، يعرف نيجيريا . حين جاء الى السلطة عام ١٩٦٦ ، كان يعلم ان ضباط الشمال وزعماءه قد جاؤوا به لمواجهة الجنوبيين . وكان يعلم ايضا — وهو الضابط الشمالي المسيحي ، ابن العشيرة الصغيرة — ان الذين اتوا به يعتزون فيه نقطة توازن بينهم وبين خصومهم .. على ان يميل هذا التوازن الى جانبهم ميلا واضحا . وكان يعلم انه — بالتالي — لا ينتمي الى صف القوى الغالبة في

الشمال المنتصر . لا هو مسلم ولا هو من قبائل الهوسا .. لذا ، حين يحل محله اليوم ضابط مسلم من الهوسا — هو مريد الله رانات محمد ، قائد الانقلاب — نراه لا يكاد يستغرب ، بل يسارع الى الاستسلام . فليس في الامر سوى نتيجة متاخرة لحرب بيافرا التي قاد فيها غوون جيش المنتصرين .

ما هو الشمال وما هو الجنوب ، في نيجيريا ؟ من هم الهوسا ومن هم الايبو واليوروبا ؟ ما هو مدار هذا الصراع ؟ في الجواب على هذه الاسئلة بذور طرح لمشكلة عامة هي مشكلة بناء الرأسمالية، في اقطار افريقيا السوداء ، بعد استقلالها ، وما يفرضه هذا البناء، على الصعيد السياسي ، اي ارساء قواعد حقيقية للدولة القومية.

نشأة طبقة مسيطرة

منذ الحرب العالمية الثانية ، تميزت نيجيريا (وهي انذاك مستعمرة بريطانية) بتوافر افق لبناء رأسمالية مستقرة فيها . كانت الامتيازات الطبقية ضعيفة في جنوب البلاد المسيحي — الوثني، وهو القسم الذي تقطن في شرقه اغلبية من قبائل « الايبو » الكاثوليكية ، وتغلب على المناطق الغربية منه قبائل اليوروبا البروتستانتية . أما الشمال المسلم — ومعظم سكانه من «الهوسا » فكان اقل استعدادا لاستقبال النمو الرأسمالي ، بسبب بنية اقطاعية ظل تماسكها يتصدى لاي تغيير عميق ..

وقد شهدت البلاد — شأن العديد من المستعمرات — نهضة واضحة اثناء الحرب الثانية وبعدها . فانفقت اعتمادات كبيرة على التعليم وجرى تأميم الخدمات العامة وبعض المنشآت الاقتصادية ..

واستبعدت البيوتات الاجنبية ، بعد ذلك ، عن التجارة الخارجية، وكان لنشوء الحكم الذاتي ، اثناء الخمسينات ، في الاقاليم الثلاثة (الشمال والجنوبين الشرقي والغربي) اثر حاسم . فقد بدأت تتشكل من جرائه امتيازات جديدة انطلقت من المهن الحرة والتجارة والزراعة والجامعة والادارة . وتكونت نخب برجوازية جديدة كان الجنوب — وخاصة قبائل الايبو — يقدم لها فرص نمو تربو كثيرا على ما قدمه الشمال . كانت « المكاتب الاقليمية للتسويق » تتولى شراء المحاصيل (زيت النخيل ، الفستق ، الكاكاو ، القطن، الخ..) بسعر اقل من السعر العالمي ، ثم تعيد بيعها محصلة ايرادا كبيرا للحكومة الاقليمية . وكان هذا الايراد يمول خاصة « مؤسسات التنمية الاقليمية » وهي مجامع اقتصادية ضخمة تملك مصارفها الخاصة وسائر الاجهزة التي تمهد لها سيطرة واسعة على مرافق الاقتصاد الاقليمي .

هكذا تكونت طبقة مسيطرة متنوعة الفروع ، غنية بالمثقفين ، انطلاقا من سلطة الحكومتين المحليتين في اقليمي الجنوب . هذا بينما ظل الشمال يرزح تحت امرائه الاقطاعيين والسلطة القبلية الموروثة، رغم بروز ظواهر ضيقة نسبيا ، في مدنه ، شبيهة بما شهده الجنوب.

ولم تكن بريطانيا غريبة عن هذا القصور الشمالي . فالشمال قلعتها واداة سيطرتها على البلاد برمتها ، في مواجهة طفرة قومية اخذت تتغذى من طموح البرجوازية الجنوبية الجديدة . واذا كانت دولة الاستقلال (عام ١٩٦٠) قد باشرت تدخلا مركزيا — لم تكن سبله ممهدة — للنهوض بالشمال — فان الجنوبيين اخذوا يعون اهمية الحفاظ على حصة بارزة في السلطة وفي الادارة لتوطيد الموقع الذي احتلته نخبهم ومواجهة نفوذ الشماليين السياسي الذي كرسه التنظيم الدستوري للدولة الفدرالية وغلبة المسلمين العددية

(من قبائل « الهوسا » و « الفولاني » ..) .

الجنوب والوحدة القومية

لم يكن غريبا والحالة هذه ان يكون الجنوب مهد الاحزاب القومية ، اي موئل وجهة وحدوية برجوازية ، تنحو الى تضييق نطاق الانقسام الاقليمي . ذلك ان رفع حواجز « النصوص » الدستورية وما شابهها من بين الاقاليم ورفع حماية هذه النصوص لامتياز الشماليين السياسي ، كان من شأنهما ان يطلقا النخبة الجنوبية من عقال مصطنع وان يتيحا لها وضع مزاياها الطبقية الفعلية في موضع الاستثمار . هكذا تاسس في الشرق « المجلس القومي لمواطني نيجيريا » وتأسست « جماعة العمل » في الغرب ، وركز هذان الحزبان نضالهما على التصدي للعصبية الاقليمية. واذا كان الاول من هذين الحزبين قد وجد نفسه ، عند الاستقلال ، شريكا في السلطة المركزية ، فان الغلبة بقيت لـ « مؤتمر شعب الشمال »، وهو حزب شمالي اقليمي النزعة كان يسيطر عليه الامراء المسلمون. اما « جماعة العمل » فانها شكلت معارضة فدرالية قوية ، امكن لها ، في بداية الستينات ، أن تنفذ الى التجمعات المتقدمة في مدن الشمال نفسه . وكان لهذا الانتشار اثره على موقف الفئات المسيطرة في الشمال . فقد تنامى الخوف على مصير الغلبة الشمالية وبدأ التدخل الشمالي مكشوفا في شؤون الاقليمين الاخرين .

كان مدار المواجهة الاولى احصاء السكان سنة ٦٢ — ٦٣ . هل جرى تزوير الاحصاء الذي ابرز غلبة الشماليين من جديد ؟ ام انه كان صحيحا ؟ فيأي حال ، انتهى الامر الى الغائه ولم تنشر نتائجه ابدا .

ثم لجأ الشماليون — من مواقعهم الفدرالية — الى تزوير الانتخابات في حملة ٦٤ .. وفازوا باكثرية ساحقة بعد ان حملوا الجبهة المناوئة لهم على الانسحاب من المعركة ، وحملوا رئيس الجمهورية على التلويح بالاستقالة احتجاجا . لم يستقل رئيس الجمهورية وتشكلت حكومة ترأسها ، عنوة ، واحد من اشد الشماليين عصبية هو ابو بكر طفاوي بلاوي . ومن يومها لم تفتأ البلاوي تنهال على نيجيريا !

كانت « جماعة العمل » قد انشقت تحت ضغط الازمة المستشرية منذ اعوام . جناح معتدل يهادن الشمال سعيا الى حماية المصالح البرجوازية العامة (جناح اكنتولا) . واخر « اشتراكي » زعيمه (اولوو) في السجن تستقطب دعوته الى التصدي جماهير غفيرة ، في الغرب خاصة ، ويحرك مخاوف حقيقية في صفوف زعامة الشمال ذاتها . وحين فاز اكنتولا — زورا — في انتخابات ١٩٦٥ (عن الاقليم الغربي) قامت في الغرب انتفاضة عامة دامت ثلاثة اشهر ولم يحسمها سوى انقلاب ضباط الايبو الشرقيين الذي انهار على اثره نظام نيجيريا برمته .

من الانقلاب الى الحرب الاهلية

كان الانقلاب نقطة فاصلة . فما سبقه يدل على ان الشرق والشمال (الشريكين المتنافسين في السلطة الفدرالية) قد تضافرت جهودهما على الاطاحة بالمعارضة الغربية . وحين اكتملت هذه الاطاحة — مع الانقلاب — كان التوازن بين الطرفين الشمالي والشرقي قد اختل .. ضباط الانقلاب شرقيون ، لكن قواه الفعلية شمالية . الخلاف بين الشرق والغرب سياسي — سطحي (مداره مؤسسات السلطة المركزية ووجهة سلوكها) .. أما الخلاف بين الشمال والجنوب (بشرقه وغربه) فخلاف اجتماعي

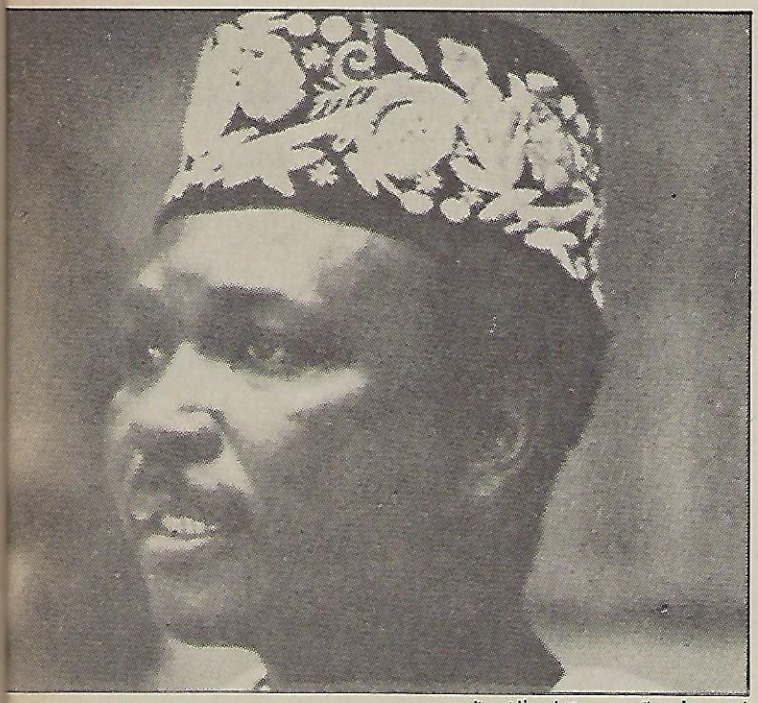

غوون : جانب من قناع الشمال

(ابنية الطبقية ودرجة النمو ، الانتماء القبلي ، الدين ، تاريخ الصلة بالاقليمين الاخرين وبالاستعمار ، الخ .) .

هكذا استطاع الشماليون أن يستولوا ، سراعا ، على الانقلاب . وما لبثوا ان نظموا مجازر ذهب ضحيتها — على دفعتين — مئات من الجنوبيين المقيمين في الشمال . وكانت هذه الضربة ، عام ٦٦ ، دافعا لقلب موقف الشرق رأسا على عقب. بينما كان الشرقيون هم دعاة الوحدة القومية ، حملتهم السياسة الشمالية على طلب الانفصال . وكلفهم الانفصال ، في غضون ثلاث سنوات تقريبا ، مليوني قتيل بينهم معظم عناصر نخبتهم المثقفة ، مفخرتهم وصلب حركتهم السياسية ..

سلم الشماليون السلطة الفدرالية الى غوون ، على اثر انقلابهم سنة ٦٦ . وقام غوون بما عليه . قاد الحملة على بيافرا، ومهد لها بالصمت على المذابح الاولى وبحرمان الاقليم الشرقي — بيافرا — من الموارد الفدرالية . ثم قسم البلاد الى ١٢ مقاطعة اطاحت مبدئيا بوحدة كل من الاقاليم الثلاثة القديمة . ولم يكن سوى غطاء لسيطرة شمالية باتت مطلقة ، ومحاولة تفتيت للمعارضة الشرقية . وكان هذا الاجراء مناسبة اعلان الاقليم الشرقي استقلاله سنة ٦٧ .. ثم ان غوون نفسه كان جزءا من قناع الرحمة الذي لبسه الشمال . فهو شمالي . لكنه ، كما اسلفنا ، ابن قبيلة صغيرة مسيحية . وهو قد استطاع — بعد القمع الشرس والتجويع في بيافرا — أن يكسب للسلطة سمعة طيبة .. لم تجر مذابح ثارية واسعة حين دخلت الجيوش الفدرالية الى الاقليم الشرقي بعد استسلامه .. وتحدث غوون كثيرا عن المصالحة الوطنية ...

بل ان سمعة السلطة الفدرالية لم تكن « سيئة » خلال الحرب نفسها . كان هناك ما يشبه الاجماع الافريقي على ادانة الانفصاليين والحق ان هؤلاء لم يكونوا « الوطنيين » الافريقيين . كانوا اوفر استعدادا من الشماليين للتعاون مع المستعمر السابق وحلفائه.غير ان هذا المستعمر قدم دعمه للشمال مخافة من مستقبل — ولو بعيد — يستعيد فيه « متورو » الجنوب مقاليد أمورهم .. اذا انتصروا كانت « عادة » الاعتماد على الشمال لا تزال راسخة في تقاليد

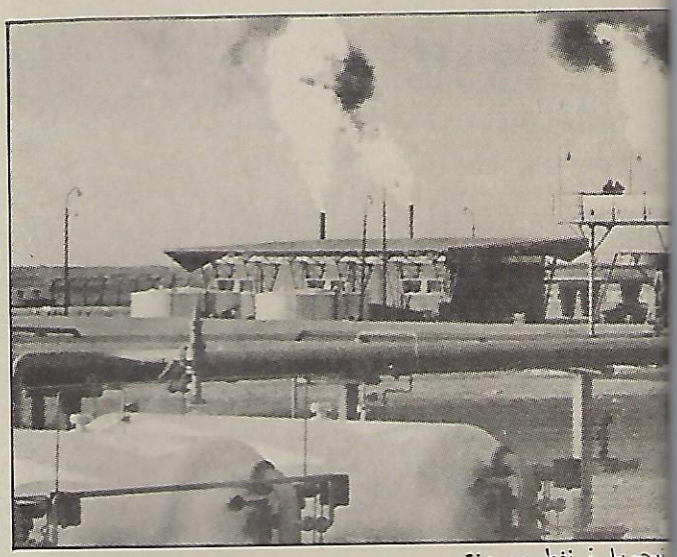

نيجيريا : نفط .. وفقر

العلاقة البريطانية — النيجيرية وفي مسلك « وريث » أمريكي حديث العهد .

بعد بيافرا

اليوم باتت حرب بيافرا بعيدة . ولم يعد الضباط الحاكمون يحتاجون الى هذه السمعة .. لكن لازاحة غوون اسبابا اخرى تتعدى العرف الكيفي ، وان كان هذا العرف يفسر « هدوء » الانقلاب الاخير . تراجع غوون قبل عشرة اشهر عن وعده باعادة الحكم المدني عام ٧٦ . وكان في ذلك ما يرضي الشمال .. والضباط والرأسماليين .. لم يتدفق ذهب البترول (معظمه ينبع من الشرق) على الشمال وباتت نيجيريا اليوم ثاني دولة مصدرة للنفط في افريقيا بعد ليبيا . لكن مقاطعات الشمال الاربع ما زالت تنال ١٥٠ مليون نايرا (النايرا تساوي ٦٥ر. جنيه استرليني) معونة فدرالية في العام ، بينما تنال مقاطعات الجنوب ثلاثة امثال هذا المبلغ . هذا رغم أن احصاء السكان ما يزال طازجا . فعام ٧٢ — ٧٣ اثبت احصاء قام به ١٢ الفا من الرجال والنساء — اللواتي يستطعن دخول البيوت المسلمة — ان مقاطعات

الشمال (وهي اربع من ست مقاطعات فيها اكثرية مسلمة) تضم وحدها ما يزيد على نصف السكان. وقد احدث الاحصاء — كالعادة — فورة عارمة في الجنوب . لكن حصة المقاطعات الجنوبية لم تكن مهددة — فيما يبدو — رغم سيطرة الشماليين . فالمنطق الرأسمالي يشاء أن تكون المقاطعات المقدمة هي الاحسن تأهيلا لمزيد من التقدم .. ولاستقبال مزيد من المال . وهذا منطق يفهمه الضباط الشماليون جيدا . لكن ما ينبغي منعه هو ان يكون لهذا الامتياز الجنوبي صدى على مستوى السلطة و « حقوق » الامراء الشماليين . وهذا ما لم يظهر غوون حماسا كافيا في التصدي له.

لم يفلح غوون في منع التوحد المتدرج للحركة النقابية النيجيرية طوال السنوات الاخيرة . وحين عمت الاضرابات البلاد (السائقون ، مستخدمو المصارف، عمال السكة الحديدية ، الخ.) لتفرض مساواة العاملين في القطاع الخاص بالموظفين ، في زيادة الاجور ، استنكف غوون عن الشطط في القمع . هذا رغم ان القانون يجيز الحكم بالسجن خمس سنوات على قادة اي اضراب. ثم تحرك الطلاب ملحين على العودة الى نظام مدني والغاء حالة الطوارىء وانتخاب مجلس للشعب من العمال والفلاحين والفئات المهنية واقرار استقلال الجامعات الاداري ، الخ ..

اخطار اللعب

في بلد له حجم نيجيريا لا يجوز هذا « اللعب » بحبل الاين . والافضل آن يشد هذا الحبل حول عنق غوون ، اذا لم يحسن هذا الاخير شده — من جديد — حول أعناق الطلائع الجنوبية . فقد تضاعف دخل نيجيريا من البترول ثلاث مرات في العام الماضي ، مع رفع الاسعار . وباتت هي المصدر الاول للبترول في العالم آلى الولايات المتحدة . وصل حجم الانتاج الى ١٢٥ مليونا من الاطنان سنويا ووصل احتياط الدولة من القطع الصعب الى ٥،٦ مليارات من الدولارات (١٢٥ مليونا فقط عام ٦٨) ووصل حجم الاستثمارات البترولية الامريكية وحدها آلى مليار دولار في عام واحد .. وليست البرجوازية « الوطنية » خارج الحلبة . فنموها بتسارع وثيق الصلة بالاستثمارات الامريكية — البريطانية — الفرنسية .. حين تمت اجراءات التأميم الواسعة عام ٧٤ جرى تسليم هذه البرجوازية ثمانمائة منشاة ، بعضها كبير ، بـ ٨٠ مليون نايرا فقط .

الا نستغرب اذن آن يعلن الجنرال محمد ان الحكم السابق احتقر « الرؤساء التقليديين » و « العادات المحلية » ؟ لا نستغرب ابدا .. فالرؤساء التقليديون والعادات المحلية شيء ثمين لاستقرار رأسمالية تابعة في نيجيريا . كلما زاد حجم القطاع الرأسمالي — المحلي والاجنبي — في بنية الانتاج زادت حاجته الى تسليط الاقطاع — ولو بتوسط الضباط — والى سحق فئات البرجوازية الصغيرة ذات الطموح الديمقراطي . هذا طبعا عدا ضرورة التصدي للطبقة العاملة واستمرار رعاية الدولة لاستغلال الفلاحين . الانقسام القبلي ، الانشقاق الطائفي ، التسلط الاقطاعي ، التفاوت بين المناطق ، الفاشية العسكرية .. ليست هذه كلها نقائض للرأسمالية التابعة ، آو عوائق في وجه نموها.

انها شروط هذا النمو . وهي اصلا مبرر « ابتكار » الاستعمار لـ « دول » ، في افريقيا السوداء كان يمكن لبعضها ان تنقسم الى ثلاث دول مثلا ولبعضها الاخر آن تضم ثلاث دول أخرى حولها .. هذا كله يحفظ السلطة بين ايدي ضباط الشمال في نيجيريا — وقد خلت لهم الان — .. وهذا كله يحرس الالغام الضخمة تحت ارض المستقبل